الحلقة الثامنة والعشرون

(1) (شهربان في سريرها.. وصلت صباحا من المشفى بعـد أن أنجبت طفلتها باكيزا.. المفـرش الخـارجي مـن البروكـار الأزرق المطرز بالقـصب.. الـشرشف الـداخلي وأغطيـة الوسادات من البفتا الناصـعة البيـاض، جديـدة ومغـسولة ومكوية.. يظهر من جانبي الوسائد وجانبي الناموسـية فـوق سريرها اللون الأزرق من نفس قماش المفرش.. شهربان في منامة حريرية زرقاء طويلة الكمين، مفتوحة الصدر بـأزرار صغيرة صدفية.. قربها محمود يرتدي لباس المنزل الـشرقي من سراويل من البفتا ومنطقة حريرية طرابلسية وكيران من الجوخ الأزرق مطرز بالأسود، وعلى رأسه طربوش مغربي من المخمل الأزرق له شرابة من القصب، وعلى كتفيه عباءة واسعة من المخمل الأزرق مقصبة من أمـام وعنـد فتحـة الأكمام.. الأسير ومصطفى وزوجتـه وبنتاهـا الـصغيرتان نجوى وسليمى في زيارتها.. باقات الزهر من الورد الجوري والقرنفل والفل تعبق في الغرفة من على طاولة الرخام قبالـة شهربان.. تدخل جارية تحمل صينية فيها زبـادي الكراويـة المزين سطحها بالقلوبات من لوز مقشر، ولب الفستق الحلبي بعضه حب وبعضه مفروم وصنوبر ومربى الورد الجـوري في كومة في وسطها.. محمود يوزع الزبادي على الأهـل.. يدخل علي يقبل يد والدته فتقبله في وجنتيه وتسأله الجارية ان كان يرغب بالكراويا فيجيب بهز الرأس، ويجلس مـع بنتـي مصطفى نجوى وسليمى الصغيرتين على طاولـة مـستديرة يكشطون القلوبات من على وجه الكراوية ويتضاحكون.. علي للجارية "أنا لا أحب الكراوية.. فتقول نجوى "أنـا لا أحـب الكراوية" وتتبعها سليمى "وأنا لا أحبها")

علي: أتحبان أن نلعب بالقطار؟

نجوى وسليمى: نعم نحب أن نلعب بالقطار..

(الجارية تفرغ الطاولة من الزبادي)

الأسير: لا أستطيع البقاء طويلا.. علي الذهاب الى صيدا.. ففاطمة آن أوان وضعها وأريد أن أكون قربها!

محمود: ألا ترى باكيزا في غرفتها؟
الأسير: طبعا سأراها، كنت لهفا لرؤيتها منذ وصلت، ولكنهـا كانـت نائمة.. لماذا تضعونها في غرفة منفصلة عن أمها؟
محمود: حتى ترتاح وتنام نوما مستغرقا..
الأسير: وترضع بمواعيد؟
محمود: طبعا بمواعيد..
الأسير: حنيفة كانت تضع سرير ابنتها فريدة قربها وترضعها كلمـا أفاقت من نومها وبكت.. كانت فريدة ضئيلة الوزن حين ولدت، ومـا لبثت أن زاد وزنها حتى كانت في شهرها السادس ثلاثـة أضـعاف وزنها يوم ولدت.. انني قلق اليوم على فاطمة، فالداية أم سعيد التـي رأى النور على يديها كل أولادي توفيت..
شهربان: ليتك جئت بفاطمة في الأسبوع الماضي الى بيروت لتلد في مشفى الجامعة كما فعلت.. فالعناية فيه ممتازة، والممرضات مدرّبات والنظافة جيدة..
الأسير: منعني من ذلك أن الدكتور جورج بوست الذي حل محل فان ديك في غيابه لا أرتاح لجشعه وبخله بالرغم من مهاراته الطبية.. انه يدقق في أجره حتى لومات المريض بين يديه.. تذكرين ما فعل يـوم وفاة والدك رحمه الله.. لم يكن معي مال لأنقده أجره، ولم يمهلني وأنا زميل مدرّس معه في الجامعة التي يدرّس فيها كي أدفع لـه حقـه.. وأبى اخراج والدك من المشفى، حتى جاء إبني مصطفى الذي تدبر له المبلغ بعد أن أرسلت سائق العربة اليه! (تدخل الوصيفة تحمل باكيزا التي حان أوان إرضاعها.. يحملها الشيخ بين يديه متهللا)
الشيخ: سبحان الله الذي خلق، خلق الإنسان من علق.. اللهـم اجعـل قدومها بركة لوالديها، اللهم متعها بالصحة والعافية والأجل الطويـل والخير الوفير والخلق القويم والحظ السعيد.. وأهلّها علينـا بـالأمن والايمان والسلامة.. انها كالبدر حين يهل ونسعد بتباشيره فاحفظها يا الله من كل عين حاسدة يارحمن يارحيم.. (يناولها الى محمود) انهـا تتململ وتبحث عن ثدي أمها (الى مصطفى) تعال معي يا مـصطفى كي ترضع شهربان إبنتها (يغادران.. تدخل هيلـدا لتهنئـة شـهربان بسلامتها.. تحمل معها علبتين تضعهما على طاولة الرخام شـهربان ترضع طفلتها)

هيلدا: (تقبل شهربان) حمدا على سلامتك (تصافح محمود وزوجـة مصطفى.. تجلس قرب شهربان تتحدث معها بالألمانية التي لا يفهمها محمود ولا زوجة مصطفى التي تودع شهربان بتقبيلها والدعاء لهـا ولابنتها بالسلامة، وتضع على لفة الصغيرة زينة ذهبيـة بيـضاوية الشكل مسننة الأطراف حفرعليها لااله الا الله محمد رسول الله.. تأخذ ابنتيها وتنصرف.. يتبعها محمود ليودع أخاه ويلحق به علي.. هيلـدا تكمل حديثها) سافر كونراد الى ألمانيا ليتهيأ لدخول الجامعة فرع كلية الحقوق.. انه راغب أن يعمل في السلك الخارجي وقد يتـاح لـه أن يعين في لبنان.. نصحته أن يدرس العربية فتكون له فرصة أكبر.. لقد وعدني بذلك..

شهربان: كيف كانت ردود فعله حين أخبرته عن حقيقة مولده؟

هيلدا: ليلة عيد ميلاد علي كان طوال الوقت ينظر الى صورة أبيـه ويتأملها بإعجاب.. سألني ليلتها ان كان هو الذي هجر أمـه، أم أمـه التي رفضت الزواج به.. قلت له أنه أحبها بكل جوارحه وهي أحبتـه كذلك ولكنها لم ترغب أن تهجر فنها.. ان الرجل المسلم يـستطيع أن يتزوج أكثر من واحدة من غير حرج، ولقد عرض عليهـا الـزواج ولكنها فضلت أن تعيش لفنها.. ولو فعلت لما أصبحت جرترود مغنية الأوبرا الشهيرة التي طبقت شهرتها الآفاق، لا في ألمانيا وحدها، بـل في كل بلد زارته وغنت فيه.. ربما كانت تعيش سعيدة مـع الرجـل الذي أحبته، ولكن الرجل المسلم، وخصوصا رجل دولة بلغ في حياته وشجاعته الأوج، حتى أصبح مشيرا في لبنـان وهـي أعلـى رتبـة عسكرية تعطى لإنسان، لا يمكن له، بل مـستحيل عليـه أن يـسمح لزوجته بالغناء.. لقد بقي حبهما حيا حتى آخر لحظة من حياتيهمـا.. ولما علم في السفارة الألمانية بموتها، لم يمهله الحزن عليها فانفجرت عنده الزائدة الدودية، وتسمم جسده ومات في عز رجولته بعد أسبوع من موتها..

شهربان: أتعلمين يا هيلدا أن قصة والدتك ووالدي جديرة أن تـصبح موضوع أوبرا تخلد مع الزمن؟ ما أجمل الحب الحقيقي وما أروعـه! والآن أخبريني كيف كانت ردود فعله تجاه زوجي..

هيلدا: في البداية لم يحبه.. ان من يجهل لغة قوم لا يمكـن لـه أن يعرفهم على حقيقتهم.. ولكنني أخبرته أنك في مثل سني ومـع ذلـك فإنك لست أما لعلي وحده من زوجك السابق الأمير مراد بل لك أيضا

ثلاثة أبناء منه، سينضمون اليك عن قريب بعد وفاة جدتهم، وسيكون زوجك لهم أبا ثانيا.. حدثته أنك لم تتزوجي رجلا مغمورا من عامـة الناس بل زوجك طبيب درس الطب في الكليـة التابعـة للإرسـالية الأمريكية، ويتقن الإنجليزية والتركية، ودرس بعد ذلك الحقـوق فـي الأزهر.. وله أخ طبيب أصغر منه سنا أصبح واليا علـى طـرابلس الغرب، وأخ صغير أنهى السنة الأولى في كلية الطب فـي مـصر.. وأن والده شاعرمشهور ومفتي ورئيس تحرير مجلة ومـدرس فـي الجامعة الأمريكية.. لم أنم وإياه وأنا أقص له تاريخ العائلة التي ينتمي إليها..

(2) (قصر علي باشا.. استعداد لاستقبال أبناء شـهربان، وخالـد وجلنار.. الباخرة ستصل عصرا الى ميناء بيروت.. محمـود ارتدى ثيابه الفرنجية.. شهربان ترضع بـاكيزا ثـم تعطيهـا للوصيفة وتطلب منها أن تسرع في الباس علي طقمه الجديد.. تقف أمام المرآة تمشط شعرها.. تدخل الوصيفة لتقول لها أن عليا يرفض لبس الطقم الجديد، بل يريـد أن يرتـدي الطقـم البحري الذي ارتداه في عيد ميلاده)

شهربان: لاتجادليه، انه عنيد.. أتركيه على راحته.. ليلبس ما يريد أن يلبسه فقط لا يتأخر.. والا تركته في البيت.. (الى محمود) كأنمـا لا يكفيني أن تأخرت في إرضاع الصغيرة، ولا أعرف أن أنتهـي مـن ارتداء ثيابي وتضفير شعري وتثبيت جديلتيه فوق رأسي!

(يركب محمود وشهربان وعلي العربة التي تسرع بهم الى الميناء وتلحق بهم العربة الثانية.. ركاب السفينة ينزلون مع حقائبهم.. يلمـح محمود خالد وشهربان جلنار.. قربهما ثلاث شباب أحدهم فارع الطول والثاني أقصر بقليل أما الثالث فقد هرع نحوها يعانقها وهو يبكـي.. سليمان ياحبيبي.. (يهرع عثمان ومصطفى نحوها فتعـانق شـهربان أبناءها الثلاثة)

شهربان: كم استطلت يا عثمان في غيابي حتـى لـم أعرفـك بـين الجموع، أصبحت في طول جدك! وأنت يا مصطفى تبلغ كتفه وبعـد عامين تصبح في طوله.. كم اشتقت لكم! تعال ياعلي وقبـل إخوتـك (يحمله عثمان ويقبله.. سليمان يعانق خصر أمه ويبكي.. مـصطفى يحمل عليا ويسأله عن اسمه فيجيبه بالعربية.. يضحك مـصطفى لأن

عليا يلفظ اسمه بشكل صحيح.. محمود يعانق خالد ويبارك له بالزواج من جلنار.. يصافح جلنار)
محمود: هيا بنا.. ليجلس الرجال في عربة (مسلما على عثمان ومصطفى.. خالد يضع حقيبته وحقيبة جلنار قرب العربجي وكذلك يفعل عثمان ومصطفى ويصعدون الى العربة.. يصعد سليمان وعلي وجلنار وشهربان الى العربة الثانية.. محمود يحمل حقيبتي جلنار وسليمان ويضعهما قرب العربجي)
جلنار: لم تردي على رسالتي اليك..
شهربان: بل ردّ زوجي عليها..
جلنار: (بدهشة) أكان زوجك الذي عانق خالد أم القائم بأعمالك؟
شهربان: هو زوجي والقائم بأعمالي.. تزوجته بعد وفاة والدي ولي طفلة منه عمرها ثلاثة أشهر.. (سليمان يسمع ويهتف "ألي أخت صغيرة؟ دائما كنت أشتهي أن يكون لي أخت!".. يقول علي "اسمها باكيزا تمسك بإصبعي تريد أن تضعها في فمها، وتقول أغو أغو")
وفي العربة الثانية كان خالد يحادث مصطفى عن سياسة السلطان عبد الحميد في كم الأفواه بشبكة من المخابرات السرية التي أخذت تعتقل كل من ينتقد أو يعارض الحكم وتودعهم السجون..
خالد: لقد أغلقت الجوائب نتيجة لهذه السياسة!
محمود: سيأسف والدي كثيرا لهذا الخبر!
خالد: وأنا لم أعد أجد مجالا للعمل لا في الأدب ولا الصحافة ولا في التدريس في الكلية العسكرية حيث تنشأ حركة سرية جديدة تدعو نفسها "الاتحاد والترقي" وهي بديلة للعثمانيين الجدد تطالب بالدستور ومعظم أعضائها من العسكريين القدامى والجدد، ومن كلية الطب ومعظمهم ممن درس في ألمانيا..
محمود: ولماذا تكون هذه الحركة متهمة؟
خالد: ان عبد الحميد الذي بدأ عهده بتعزيز المعاهدات والإصلاحات التي كانت زمن عبد المجيد، وكان الناس يرجون الخير على يديه، ما لبث أن اتخذ حكمه طابعا رجعيا متسلطا معاديا للحداثة والدستور.. الجو لم يعد آمنا هناك.. الإنسان لا يأمن على نفسه إن خرج في الصباح إلى عمله أن يعود في المساء سالما الى بيته بسبب الوشايات.. فهناك الكثير من الأبرياء الذين يودعون السجون دون محاكمة، وغيرهم الذين يقتلون ويلقى بجثثهم الى البوسفور.. ان كل

الحركات متهمة، فالعثمانيون الجدد ضربوا بشكل لا يستحقونه، وأودع رئيسهم مدحت باشا الذي اتهم بأنه المحرض على اغتيال عبد العزيز في السجن واغتيل فيه.. وجيء بعده بأخيه مراد الخامس ولكنه لم يلبث في الحكم الا ثلاثة أشهر واتهم بأنه أصيب بالجنون، وخلع ليأتي بعده عبد الحميد وهو من أحفاد عبد المجيد..

محمود: من الذي يحكم تصرفات عبد الحميد في القصر؟

خالد: القوى الغيبية في القصر هي التي تحكم.. يهيجون الأكراد على الأرمن، فيردونهم المنون، والثوار الأرمن الذين يهربون ينقلون ثورتهم الى كل أنحاء الإمبرطورية العثمانية حيثما كانوا.. ويبدو في لحظة أن كل الأعراق المختلفة المتجذرة في دار الإسلام على وشك أن تنهار لحمتها بسبب الإنفصاليين المتحمسين.. في اليونان، في البلقان، في بلاد الصرب وفي ألبانيا.. والغرب وقناصل دوله يعملون نخرا في هذه اللحمة لاقتسام الولايات العثمانية.. ومثل هذا الوضع الخطر في المركز يشبّ لهيبه الى كل الولايات.. ان وجدت عملا في لبنان فلن أعود الى تركيا.. ولكن جلنار لا توافقني على هذا وتريد العودة الى بلادها ان أصررت على البقاء..

* * *